

مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يَقْدَمُ:

(المُحَاضَرَةُ الثَّانِيَّةُ)

مِنْ مَادَّةِ

صَلَّى اللهُ
وَسَلَّمَ

سِيَرَةِ النَّبِيِّ ﷺ

[الْعَهْدُ الْمَكِّيُّ - ج ٢]

www.menhag-un.com

أَوَّلُ أَمْرِ بِإِظْهَارِ الدَّعْوَةِ

فَقَدْ بَلَّغْنَا -بِفَضْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ- فِي مَسِيرَةِ السَّيْرِ عِنْدَ الْجَهْرِ بِالدَّعْوَةِ.

وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ بِهَذَا الصَّدَدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢١٤) **وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** (٢١٥) **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ** [الشعراء: ٢١٤-٢١٦]، وَالسُّورَةُ الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا الْآيَةُ هِيَ «سُورَةُ الشُّعَرَاءِ»، ذُكِرَتْ فِيهَا أَوَّلًا قِصَّةُ مُوسَى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** مِنْ بَدَايَةِ نُبُوَّتِهِ إِلَى هِجْرَتِهِ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَنَجَاتِهِمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَيْهِ، وَإِعْرَاقِ آلِ فِرْعَوْنَ مَعَهُ، وَقَدْ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ عَلَى جَمِيعِ الْمَرَاحِلِ الَّتِي مَرَّ بِهَا مُوسَى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** خِلَالَ دَعْوَةِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وَهَذَا التَّفْصِيلُ إِنَّمَا جِيءَ بِهِ حِينَ أُمِرَ الرَّسُولُ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بِدَعْوَةِ قَوْمِهِ إِلَى اللَّهِ؛ لِيَكُونَ أَمَامَهُ وَأَمَامَ أَصْحَابِهِ نُمُودَجًا لِمَا سَيَلْقَوْنَهُ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالِاضْطِهَادِ حِينَمَا يَجْهَرُونَ بِالدَّعْوَةِ، وَلِيَكُونُوا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ مِنْذُ بَدَايَةِ دَعْوَتِهِمْ.

وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى تَشْتَمِلُ هَذِهِ السُّورَةُ عَلَى ذِكْرِ مَالِ الْمُكْذِبِينَ لِلرُّسُلِ، مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، وَعَادٍ، وَثَمُودَ، وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ، وَقَوْمِ لُوطٍ، وَأَصْحَابِ الْأَيْكَةِ، عِلَاوَةً عَلَى مَا ذُكِرَ مِنْ أَمْرِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ؛ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ سَيَقُومُونَ بِالتَّكْذِيبِ بِمَا سَيُؤُولُ

إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ، وَبِمَا سَيَلَقُونَ مِنْ مُوَاخَذَةِ اللَّهِ إِنْ اسْتَمَرُّوا عَلَى التَّكْذِيبِ، وَلَيَعْرِفَ الْمُؤْمِنُونَ أَنَّ حُسْنَ الْعَاقِبَةِ لَهُمْ لَا لِلْمُكَذِّبِينَ.

ثُمَّ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَصْدَعَ بِمَا جَاءَهُ مِنْهُ، وَأَنْ يُبَادِيَ النَّاسَ بِأَمْرِهِ، وَأَنْ يَدْعُو إِلَيْهِ؛ وَكَانَ بَيْنَ مَا أَخْفَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَهُ، وَاسْتَرَبَهُ إِلَى أَنْ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِإِظْهَارِ دِينِهِ ثَلَاثَ سِنِينَ، - قَالَ: فِيمَا بَلَغَنِي - مِنْ مَبْعَثِهِ؛ ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢١٤) وَلِخَفِضِ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢١٥].

رَوَى الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَا زَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾؛ فَخَرَجَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ».



دَعْوَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ

بَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَنْفِيزِ أَمْرِ رَبِّهِ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ فَعَلَهُ أَنْ دَعَا جَمِيعَ ذَوِيهِ، وَأَهْلَ قَرَابَتِهِ، وَعَشِيرَتَهُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، وَنَفَرًا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، فَاجْتَمَعَ أَرْبَعُونَ أَوْ خَمْسَةٌ وَأَرْبَعُونَ رَجُلًا، فَصَنَعَ لَهُمْ مِدًّا مِنْ طَعَامٍ عَلَيْهِ رِجْلُ شَاةٍ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وَبَقِيَ الطَّعَامُ كَمَا هُوَ كَأَنَّهُ لَمْ يُمْسَسْ، ثُمَّ دَعَا بِغُمَرِ -الْغُمَرُ: بِضَمِّ الْغَيْنِ وَفَتْحِ الْمِيمِ، الْقَدْحُ الصَّغِيرُ- مِنْ لَبَنٍ، فَشَرِبُوا حَتَّى رَوَوْا وَبَقِيَ الشَّرَابُ كَأَنَّهُ لَمْ يُمْسَسْ، فَلَمَّا انْتَهَوْا مِنْ طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ بَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخْبِرُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَرَادَ اللَّهُ ﷻ لِنَبِيِّهِ ﷺ أَنْ يُكْمِلَ كَلَامَهُ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَابْتَدَرَهُ أَبُو لَهَبٍ الْكَلَامَ، وَقَالَ:

هَؤُلَاءِ هُمْ عُمُومَتُكَ وَبَنُو عُمُومَتِكَ فَتَكَلَّمْ بِمَا تُرِيدُ وَدَعْ الصُّبَاةَ - يُقَالُ: صَبَأَ فُلَانٌ إِذَا خَرَجَ مِنْ دِينٍ إِلَى دِينٍ غَيْرِهِ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تُسَمِّي النَّبِيَّ ﷺ الصَّابِيَّ؛ لِأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ دِينِ قُرَيْشٍ إِلَى دِينِ الْإِسْلَامِ، وَمَا كَانَ فِي دِينِ قُرَيْشٍ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ ﷻ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ لِقَوْمِكَ بِالْعَرَبِ قَاطِبَةً طَاقَةً، وَأَنَّ أَحَقَّ مَنْ أَخَذَكَ فَحَبَسَكَ بَنُو أَبِيكَ؛ إِنْ أَقَمْتَ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ، فَهُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْ تَثْبَ عَلَيْكَ بَطُونُ قُرَيْشٍ وَتُمِدُّهَا الْعَرَبُ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا جَاءَ عَلَى بَنِي أَبِيهِ بِشَرٍّ مِمَّا جِئْتَهُمْ بِهِ.

فَتَفَرَّقَ الْقَوْمُ، وَلَمْ يَكْلَمْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَانِيَةً، وَصَنَعَ لَهُمْ مِنَ الطَّعَامِ مِثْلَ مَا صَنَعَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا، ثُمَّ خَطَبَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ، وَأُؤَمِّنُ بِهِ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الرَّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَاللَّهُ لَوْ كَذَبْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا كَذَبْتُكُمْ، وَلَوْ غَرَرْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا غَرَرْتُكُمْ، وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً، وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَاللَّهُ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَتَبْعُنَّ كَمَا تَسْتَقِظُونَ، وَلَتَحَاسِبُنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ، وَلَتَجْزُونَ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا، وَبِالسُّوءِ سُوءًا، وَإِنَّهَا لَجَنَّةٌ أَبَدًا أَوْ لَنَارٌ أَبَدًا، وَاللَّهُ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَا أَعْلَمُ شَابًّا فِي الْعَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلِ مِمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ تَعَالَى أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ، فَأَيْتُكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَصَاحِبِي؟».

فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: مَا أَحَبَّ إِلَيْنَا مُعَاوَنَتَكَ، وَأَقْبَلْنَا لِنَصِيحَتِكَ، وَأَشَدَّ تَصَدِيقًا لِحَدِيثِكَ، وَهَؤُلَاءِ بَنُو أَبِيكَ مُجْتَمِعُونَ، وَإِنَّمَا أَنَا وَأَحَدُهُمْ غَيْرَ أَنِّي أَسْرَعُهُمْ إِلَى مَا تُحِبُّ، فَاْمْضِ لِمَا أُمِرْتَ بِهِ، فَوَاللَّهِ لَا أَزَالُ أَحُوْطُكَ وَأَمْنُوكَ؛ غَيْرَ أَنَّ نَفْسِي لَا تُطَاوِعُنِي عَلَى فِرَاقِ دِينِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. أَخْرَجَ ذَلِكَ كُلَّهُ: الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَأَخْرَجَهُ فِي «فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ» وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

ثُمَّ تَكَلَّمَ سَائِرُ الْقَوْمِ كَلَامًا لَيْنًا غَيْرَ أَبِي لَهَبٍ فَإِنَّهُ قَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! هَذِهِ وَاللَّهِ السَّوَاءُ، خُذُوا عَلَى يَدَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى يَدَيْهِ غَيْرُكُمْ، فَإِنْ أَسْلَمْتُمُوهُ حِينَئِذٍ ذَلَلْتُمْ، وَإِنْ مَنَعْتُمُوهُ قَتَلْتُمْ.

فَقَالَتْ صَفِيَّةُ عَمَّةُ الرَّسُولِ ﷺ لِأَبِي طَالِبٍ: أَيُّ أَخِي! أَيَحْسُنُ بِكَ خِذْلَانُ
ابْنِ أَخِيكَ؟ فَوَاللَّهِ مَا زَالَ الْعُلَمَاءُ يُخْبِرُونَ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ
نَبِيٌّ فَهُوَ هُوَ.

فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: هَذَا وَاللَّهِ الْبَاطِلُ وَالْأَمَانِيُّ، وَكَلَّامُ النِّسَاءِ فِي الْحِجَالِ
- الْحَجَلَةُ: بَيْتٌ كَالْقُبَّةِ يُسْتَرُّ بِالشَّيَابِ، وَتُجْمَعُ عَلَى حِجَالٍ -، إِذَا قَامَتْ بَطُونُ
قُرَيْشٍ، وَقَامَتْ مَعَهَا الْعَرَبُ فَمَا قُوتُنَا بِهِمْ؟ فَوَاللَّهِ مَا نَحْنُ عِنْدَهُمْ إِلَّا أَكَلَةُ رَأْسٍ
- أَيُّ: نَحْنُ عِنْدَهُمْ قَلِيلٌ، قَدَرٌ مَا يُشْبِعُهُمْ رَأْسٌ وَاحِدٌ -، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَاللَّهِ
لَنَمْنَعَنَّهُ مَا بَقِينَا.



الدعوة جهاراً على جبل الصفا

بَعْدَمَا تَأَكَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ تَعَهُدِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ بِحِمَايَتِهِ، أَخَذَ ﷺ يُفَكِّرُ فِي وَسِيلَةٍ جَدِيدَةٍ يُبَلِّغُ فِيهَا قَوْمَهُ رِسَالَةَ رَبِّهِ، فَصَعِدَ ﷺ جَبَلَ الصَّافَا ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: «يَا صَبَاحَاهُ» - وَهِيَ كَلِمَةٌ تَقُولُهَا الْعَرَبُ إِذَا صَاحُوا لِلْغَارَةِ؛ لِأَنَّهُمْ أَكْثَرُ مَا يُغَيِّرُونَ عِنْدَ الصَّبَاحِ، وَيُسَمُّونَ يَوْمَ الْغَارَةِ يَوْمَ الصَّبَاحِ، فَكَانَ الْقَائِلُ: يَا صَبَاحَاهُ، يَقُولُ: قَدْ غَشَيْنَا الْعُدُوَّ -، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتَفُ - أَيْ: يُنَادِي -؟، قَالُوا: مُحَمَّدٌ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، وَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرَأَيْتُكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟»، قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ! أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ [المسد: ١-٢]. وَالْحَدِيثُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

أَبُو لَهَبٍ هُوَ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَاسْمُهُ عَبْدُ الْعُزَّى، وَكُنِيَ أَبَا لَهَبٍ إِمَّا بِابْنِهِ لَهَبٍ، وَإِمَّا بِشِدَّةِ حُمْرَةِ وَجْنَتَيْهِ، وَقَدْ أَخْرَجَ الْفَاكِهِيُّ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَثِيرٍ، قَالَ: «إِنَّمَا سُمِّيَ أَبَا لَهَبٍ؛ لِأَنَّ وَجْهَهُ كَانَ يَتَلَهَّبُ مِنْ حُسْنِهِ».

وَوَافَقَ ذَلِكَ مَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ مِنْ أَنَّهُ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ؛ وَلِهَذَا ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ بِكُنْيَتِهِ دُونَ اسْمِهِ، وَلِكَوْنِهِ بِهَا أَشْهَرَ.

وَرَوَى الشَّيْخَانِ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» بِسَنَدَيْهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ وَأَنْذَرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﷻ، قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ [أَيُّ: يَا عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ]! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ -وَبِنْتُ- مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مَا شِئْتَ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا».

وَرَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﷻ وَأَنْذَرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﷻ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشًا، فَاجْتَمَعُوا، فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: «يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، وَيَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، وَيَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، وَيَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ! يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ! أَنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَابِلَهَا بَيْلَاهَا».

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ»: «إِنَّ الْأَقْرَبَ لِلرَّجُلِ مَنْ كَانَ يَجْمَعُهُ هُوَ وَجَدُّهُ أَعْلَى، وَكُلُّ مَنْ اجْتَمَعَ مَعَهُ فِي جَدِّ دُونَ ذَلِكَ كَانَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ، وَفِيهِ السِّرُّ فِي الْأَمْرِ بِإِنْذَارِ الْأَقْرَبِينَ أَوَّلًا؛ أَنَّ الْحُجَّةَ إِذَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ تَعَدَّتْ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَإِلَّا فَكَانُوا عِلَّةً لِلْأَبْعَدِينَ فِي الْإِمْتِنَاعِ، وَأَنْ لَا يَأْخُذَهُ مَا يَأْخُذُ الْقَرِيبُ لِلْقَرِيبِ مِنَ الْعَطْفِ وَالرَّأْفَةِ فَيَحَايِبُهُمْ فِي الدَّعْوَةِ وَالتَّخْوِيفِ، فَلِذَلِكَ نَصَّ لَهُ عَلَى إِنْذَارِهِمْ».

هَذِهِ الصَّيْحَةُ الْعَالِيَّةُ هِيَ غَايَةُ الْبَلَاغِ، فَقَدْ فَاصَلَ الرَّسُولُ ﷺ قَوْمَهُ عَلَى دَعْوَتِهِ، وَأَوْضَحَ لِأَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ أَنَّ التَّصَدِيقَ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ هُوَ حَيَاةُ الصَّلَاةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَأَنَّ عَصَبِيَّةَ الْقَرَابَةِ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا الْعَرَبُ ذَابَتْ فِي حَرَارَةِ هَذَا الْإِنْذَارِ الْآتِي مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ.



جامع منہاج النبوة

www.menhag-un.com

مَوْقِفُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ كَبِيرَ الْمَنْزِلَةِ فِي بَلَدِهِ، مَرْمُوقًا بِالثِّقَةِ وَالْمَحَبَّةِ، وَهَذَا هُوَ ذَا يُوَاجِهْهُ مَكَّةَ بِمَا تَكْرَهُ، وَيَتَعَرَّضُ لِخِصَامِ السُّفَهَاءِ وَالْكِبَرَاءِ، وَأَوَّلُ قَوْمٍ يُغَامِرُ بِخُسْرَانٍ مَوَدَّتِهِمْ هُمْ عَشِيرَتُهُ الْأَقْرَبُونَ، لَكِنَّ هَذِهِ الْأَلَامَ تَهَوَّنُ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ الَّذِي شَرَحَ اللَّهُ بِهِ صَدْرَهُ، فَلَا عَلَيْهِ أَنْ يَبِيتَ بَعْدَ هَذَا الْإِنْذَارِ وَمَكَّةَ تَمْوجُ بِالْغَرَابَةِ وَالْإِسْتِنْكَارِ، وَتَسْتَعِدُّ لِحَسْمِ هَذِهِ الثُّورَةِ الَّتِي انْدَلَعَتْ بَعْتُهُ، وَتَخْشَى أَنْ تَأْتِيَ عَلَى ثَقَالِيدِهَا وَمَوْرُوثَاتِهَا؛ فَبِتِلْكَ كَانَتْ نَظَرَتُهُمْ إِلَيْهَا.

لَمَّا أَظْهَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّعْوَةَ لِلْإِسْلَامِ، وَصَدَعَ بِالْحَقِّ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى، لَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ قَوْمُهُ، وَلَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ، حَتَّى ذَكَرَ آلِهَتَهُمْ وَعَابَهَا، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ؛ أَعْظَمُوهُ وَنَاكَرُوهُ، وَأَجْمَعُوا عَلَى خِلَافِهِ وَعَدَاوَتِهِ، سِوَى عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي حَدَّبَ عَلَيْهِ، وَمَنَعَهُ وَقَامَ دُونَهُ.

وَهَذَا تَجَدُّهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَإِنَّكَ إِذَا جَلَسْتَ فَاسْتَنْكَرْتَ الشُّرْكَ بِطَرِيقَةٍ عَامَّةٍ، وَأَخَذْتَ تَذْمُهُ وَتَذَمُّ أَهْلَهُ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينٍ وَلَا تَخْصِصٍ؛ اسْتَحْسَنَ كَلَامَكَ الْمُشْرِكُونَ، فَإِذَا مَا عَيَّنْتَ وَحَدَّدْتَ قَامَتْ قِيَامَتُهُمْ وَوَقَعَتْ الْمَلْحَمَةُ!!

فَالنَّبِيُّ ﷺ لَمَّا دَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَمَرَهُمْ بِاتِّبَاعِهِ؛ لَمْ يَبْعُدُوا مِنْهُ، وَلَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ حَتَّى ذَكَرَ آلِهَتَهُمْ وَعَابَهَا، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ؛ أَعْظَمُوهُ وَنَاكَرُوهُ، وَأَجْمَعُوا عَلَى خِلَافِهِ وَعَدَاوَتِهِ، سِوَى عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي حَدَّبَ عَلَيْهِ، وَمَنَعَهُ وَقَامَ دُونَهُ.

وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي دَعْوَتِهِ مُظْهِرًا لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَرُدُّهُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَمُعَكِّرًا عَلَى خُرَافَاتِ الشُّرْكِ وَتُرَاهَاتِهِ، وَيَذْكُرُ حَقَائِقَ الْأَصْنَامِ، وَمَا لَهَا مِنْ قِيَمَةٍ فِي الْحَقِيقَةِ، يُضْرَبُ بِعَجْزِهَا الْأَمْثَالُ، وَيُبَيِّنُ بِالْبَيِّنَاتِ أَنَّ مَنْ عَبَدَهَا وَجَعَلَهَا وَسِيلَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ فَاجَأَ الْعَرَبَ بِمَا لَمْ يَكُونُوا يَأْلِفُونَهُ، وَقَدْ اسْتَنَكَرُوا دَعْوَتَهُ أَشَدَّ الْإِسْتِنكَارِ، وَكَانَ كُلُّ هَمِّهِمُ الْقَضَاءُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ، فَكَانَ ذَلِكَ رَدًّا تَارِيخِيًّا عَلَى بَعْضِ دُعَاةِ الْقَوْمِيَّةِ، الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ إِنَّمَا كَانَ يُمَثِّلُ فِي رَسُولَاتِهِ آمَالَ الْعَرَبِ وَمَطَامِحَهُمْ حِينَئِذٍ، وَهُوَ زَعَمٌ مُضْحِكٌ تَرُدُّهُ وَقَائِعُ التَّارِيخِ الثَّابِتَةُ كَمَا رَأَيْنَا، وَمَا حَمَلَ هَذَا الْقَائِلَ وَأَمْثَالَهُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ إِلَّا الْغُلُوفُ فِي دَعْوَى الْقَوْمِيَّةِ، وَجَعَلَ الْإِسْلَامَ أَمْرًا مُنْبِثًا مِنْ ذَاتِيَّةِ الْعَرَبِ وَتَفْكِيرِهِمْ، وَهَذَا إِنْكَارٌ وَاضِحٌ لِنُبُوءَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَخَفْضٌ عَظِيمٌ لِرِسَالَةِ الْإِسْلَامِ.



وَفَدَّ قُرَيْشٌ إِلَى أَبِي طَالِبٍ

فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ وَرَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا يُعْتَبِرُهُمْ -أَي: لَا يُرْضِيهِمْ- مِنْ شَيْءٍ أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ مِنْ فِرَاقِهِمْ وَعَيْبِ آلِهِمْ، وَرَأَوْا أَنَّ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ قَدْ حَدَبَ عَلَيْهِ وَقَامَ دُونَهُ فَلَمْ يُسَلِّمْهُ لَهُمْ؛ مَشَى رِجَالٌ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ إِلَى أَبِي طَالِبٍ، -وَهُمْ: عُبَيْدُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ، وَالْأَسْوَدُ بْنُ الْمُطَّلِبِ، وَأَبُو جَهْلٍ عَمْرُو بْنُ هِشَامٍ، وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، وَنُبَيْهٌ وَمُنَبِّهٌ ابْنَا الْحَجَّاجِ، وَالْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ- فَقَالُوا: يَا أَبَا طَالِبٍ! إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ قَدْ سَبَّ آلَهُتَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَسَفَّهَ أَحْلَامَنَا، وَضَلَّلَ آبَاءَنَا، فِيمَا أَنْ تَكْفُهُ عَنَّا، وَإِنَّمَا أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، فَإِنَّكَ عَلَى مِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ خِلَافِهِ فَتُكْفِيكَهُ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو طَالِبٍ قَوْلًا رَفِيقًا، وَرَدَّهُمْ رَدًّا جَمِيلًا، فَانْصَرَفُوا عَنْهُ.

رَوَى الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» وَصَحَّحَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَكَانَتْهُ رَقٌّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا عَمُّ! إِنَّ قَوْمَكَ يَرَوْنَ أَنَّ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا، قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: لِيُعْطَوْكَهُ، فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا، قَالَ: قَدْ عَلِمْتَ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكَرٌ لَهُ، أَوْ أَنَّكَ كَارِهِ لَهُ، قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ؟ فَوَاللَّهِ

مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالشَّعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجْزِهِ، وَلَا بِقَصِيدِهِ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ، وَاللَّهُ مَا يُشَبِّهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَاللَّهُ إِنْ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ لِحَلَاوَةٍ، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثَمِّرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ، قَالَ: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ، قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أَفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، يَأْثُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ. الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، وَقَالَ: «صَحِيحُ الْإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ»، وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ وَمِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى مُرْسَلَةً، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ إِبْرَادِ جَمِيعِ الطَّرِيقِ: «وَكُلُّ ذَلِكَ يُؤَكِّدُ بَعْضُهُ بَعْضًا».

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ ١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَا مَمْدُودًا ١٢ وَبَيْنَ شُهُودًا ١٣ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ١٤ ثُمَّ تَطَمَعُ أَنْ أَزِيدَ ١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِأَيْنَا عِينِدًا ١٦ سَازِجَهُ، صَعُودًا ١٧ إِنَّهُ، فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ٢٤ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ [المدرثر: ١١-٢٥].

جَادَلَ الْمُشْرِكِينَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَادَلُوهُ، وَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ الدَّامِغَةَ؛ فَاعْتَرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْحَقِّ، وَإِنْ أَظْهَرُوا الْمُخَالَفَةَ عِنَادًا وَحَسَدًا وَبَغْيًا وَجُحُودًا.

رَوَى إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوِيَةَ بِسَنَدِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ -أَي: قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ

الْمُغِيرَةَ الْقُرْآنَ -، فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا عَمُّ، إِنَّ قَوْمَكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا، قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: لِيُعْطَوْكَهُ، فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لَتَعْرِضَ مَا قَبْلَهُ!».

وَهَذِهِ طَرِيقَةٌ خَبِيثَةٌ تَدُلُّ عَلَى مَا كَانُوا يَتَمَتَّعُونَ بِهِ مِنْ ذِكَاةٍ فِي الشَّرِّ، فَإِنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَهَيِّجَهُ دَخَلَ لَهُ مِنْ هَذَا الْمَدْخَلِ، فَقَالَ: إِنَّ قَوْمَكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا، قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: لِيُعْطَوْكَهُ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَقُولُونَ: إِنَّهُ ذَهَبَ إِلَى مُحَمَّدٍ لِكَيْ يَتَعَرَّضَ لِمَا عِنْدَهُ حَتَّى يُعْطِيَهُ مَالًا أَوْ يَصِلَهُ بِمَتَاعٍ.

«قَالَ: قَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكَرٌ لَهُ، قَالَ: مَاذَا أَقُولُ؟ فَوَاللَّهِ مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ أَعْرَفَ بِالشَّعَارِ مِنِّي، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجْزِهِ، وَلَا بِقَصِيدِهِ مِنِّي، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجَنِّ، وَاللَّهِ مَا يُشَبِّهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا، وَاللَّهِ إِنْ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً، وَإِنْ عَلَيْهِ طَلَاوَةً، وَإِنَّهُ لَمُشْمِرٌ أَعْلَاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَلَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحِطُّمْ مَا تَحْتَهُ...».

فَهَذِهِ كُلُّهَا شَهَادَتُهُ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنا ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ.

«قَالَ: لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ، قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أَفْكَّرَ فِيهِ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثِرُ يَأْثُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ. فَنَزَلَتْ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ﴾ (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ، مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا... ﴿الآيَاتِ﴾. [المدرس: ١١-١٣].

هَكَذَا رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ عَنِ الْحَاكِمِ عَنْ إِسْحَاقَ.

قَالَ الْأَلْبَانِيُّ: «وَفِي ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى -إِخْبَارًا عَنْ جَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عَقْلِهِمْ-: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلِمَ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِ بِثَايَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، فَحَارُوا مَاذَا يَقُولُونَ فِيهِ -كَمَا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ»- فَكُلُّ شَيْءٍ يَقُولُونَهُ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْحَقِّ مَهْمَا قَالَهُ أَخْطَأَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨].

وَرَوَى الْإِمَامُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ فِي «مُسْنَدِهِ»: بِسَنَدِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ يَوْمًا فَقَالُوا: أَنْظِرُوا أَعْلَمَكُمْ بِالسَّحْرِ وَالْكَهَانَةِ وَالشُّعْرِ، فَلَيَأْتِ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي فَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَشَتَّتْ أَمْرَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، فَلْيَكَلِّمَهُ وَلْيَنْظُرْ مَاذَا يَرُدُّ عَلَيْهِ، فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُ أَحَدًا غَيْرَ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، فَقَالُوا: أَنْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ.

فَأَتَاهُ عُتْبَةُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ اللَّهِ؟ -يُرِيدُ أَبَاهُ- فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: إِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ خَيْرٌ مِنْكَ فَقَدْ عَبَدُوا الْآلِهَةَ الَّتِي عَبَتَ، وَإِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ خَيْرٌ مِنْهُمْ فَتَكَلِّمْ حَتَّى نَسْمَعَ قَوْلَكَ، إِنَّا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا سَخْلَةً قَطُّ أَشَامَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْكَ؛ فَفَرَّقَتْ جَمَاعَتَنَا، وَشَتَّتْ أَمْرَنَا، وَعَبَتَ دِينَنَا، وَفَضَحَتْنَا فِي الْعَرَبِ، حَتَّى لَقَدْ طَارَ فِيهِمْ أَنَّ فِي قُرَيْشٍ سَاحِرًا، وَأَنَّ فِي قُرَيْشٍ كَاهِنًا، وَاللَّهِ مَا نَنْتَظِرُ إِلَّا مِثْلَ صَيْحَةِ الْجُبَلِيِّ؛ أَنْ يَقُومَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ بِالسُّيُوفِ حَتَّى نَتَفَانِي،

أَيُّهَا الرَّجُلُ! إِنْ كَانَ إِنَّمَا بِكَ الْحَاجَةُ جَمَعْنَا لَكَ حَتَّى تَكُونَ أَغْنَى قُرَيْشٍ رَجُلًا وَاحِدًا، وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا بِكَ الْبَاءَةُ فَاخْتَرِ أَيَّ نِسَاءِ قُرَيْشٍ شِئْتَ فَلَنزَوِّجَكَ عَشْرًا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَرَعْتَ؟»، قَالَ: نَعَمْ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حَمْدٌ ١﴾ نَزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كُنْتُ فُصِّلْتُ أَيْتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ إِلَى أَنْ بَلَغَ ﴿٤﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿٥﴾ [فصلت: ١-١٣]».

فَقَالَ عُتْبَةُ: حَسْبُكَ، مَا عِنْدَكَ غَيْرَ هَذَا؟ قَالَ: «لَا»، فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ فَقَالُوا: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ شَيْئًا أَرَى أَنَّكُمْ تُكَلِّمُونَهُ إِلَّا كَلَّمْتُهُ، قَالُوا: فَهَلْ أَجَابَكَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، ثُمَّ قَالَ: لَا وَالَّذِي نَصَبَهَا بَنِيَّةً -يَحْلِفُ بِرَبِّ الْكَعْبَةِ الَّذِي نَصَبَهَا- مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ، غَيْرَ أَنَّهُ أَنْذَرَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ، قَالُوا: وَيْلَكَ! يُكَلِّمُكَ الرَّجُلُ بِالْعَرَبِيَّةِ لَا تَدْرِي مَا قَالَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَ ذِكْرِ الصَّاعِقَةِ».

وَقَدْ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ الْحَاكِمِ بِسَنَدِهِ، عَنْ الْأَجْلَحِ بِهِ، وَفِيهِ كَلَامٌ وَزَادَ: «وَإِنْ كُنْتُ إِنَّمَا بِكَ الرِّيَاسَةُ عَقَدْنَا أَلْوِيَّتَنَا لَكَ فَكُنْتَ رَأْسًا مَا بَقِيَتْ».

وَعِنْدَهُ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ: «﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾»؛ أَمْسَكَ عُتْبَةُ عَلَى فِيهِ -أَي: عَلَى فِيهِ- وَنَاشَدَهُ الرَّحِمَ أَنْ يَكْفَ عَنْهُ، وَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى أَهْلِهِ وَاحْتَبَسَ عَنْهُمْ.

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَاللَّهِ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا نَرَى عُتْبَةَ إِلَّا صَبًا مَعَ مُحَمَّدٍ - أَوْ: صَبًا إِلَيْهِ - وَأَعْجَبَهُ كَلَامُهُ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ حَاجَةٍ أَصَابَتْهُ، انْطَلَقُوا بِنَا إِلَيْهِ، فَأَتَوْهُ؛ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: وَاللَّهِ يَا عُتْبَةُ مَا جِئْنَا إِلَّا أَنَّكَ صَبَوْتَ إِلَى مُحَمَّدٍ وَأَعْجَبَكَ أَمْرُهُ، فَإِنْ كَانَ بِكَ حَاجَةٌ جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا يُغْنِيكَ عَنْ مُحَمَّدٍ، فَعُضِبَ وَأَقْسَمَ بِاللَّهِ لَا يُكَلِّمُ مُحَمَّدًا أَبَدًا، وَقَالَ: لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِ قُرَيْشٍ مَالًا، وَلَكِنِّي أَتَيْتُهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِمُ الْقِصَّةَ، فَأَجَابَنِي بِشَيْءٍ وَاللَّهِ مَا هُوَ بِسِحْرٍ وَلَا بِشَعْرٍ وَلَا كَهَانَةٍ، قَرَأَ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿٣﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿٤﴾ [نصلت: ١-١٣].

فَأَمْسَكَتُ بِفِيهِ وَنَاشَدْتُهُ الرَّحِمَ أَنْ يَكْفَ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا إِذَا قَالَ شَيْئًا لَمْ يَكْذِبْ، فَخِفْتُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْكُمُ الْعَذَابُ.

ثُمَّ رَوَى الْبَيْهَقِيُّ بِسَنَدِهِ عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ يَوْمٍ عَرَفْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنِّي أَمْشِي أَنَا وَأَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ فِي بَعْضِ أَرْقَةِ مَكَّةَ، إِذْ لَقِينَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي جَهْلٍ: «يَا أَبَا الْحَكَمِ، هَلُمَّ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ»، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ أَنْتَ مُتِّهِ عَنْ سَبِّ آلِهَتِنَا؟ هَلْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ نَشْهَدَ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ؟ فَحَنَنْ نَشْهَدُ أَنْ قَدْ بَلَّغْتَ، فَوَاللَّهِ لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ مَا تَقُولُ حَقٌّ لَا تَبْعُثُكَ، فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَقْبَلَ عَلَيَّ - أَيَّ: أَقْبَلَ عَلَيْهِ أَبُو جَهْلٍ - فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ مَا يَقُولُ حَقٌّ، وَلَكِنْ يَمْنَعُنِي شَيْءٌ؛ إِنَّ بَنِي قُصَيٍّ قَالُوا: فِينَا الْحِجَابَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ قَالُوا فِينَا السَّقَايَةُ، فَقُلْنَا:

وَهَذَا الْقَوْلُ مِنْهُ -لَعَنَهُ اللَّهُ-؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ وَعَنْ أَضْرَابِهِ: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخِذُواكَ إِلَّا هُزُوا أَلَيْسَ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (٤١) **إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهِتَنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا** وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿[الفرقان: ٤١-٤٢].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَوَارٍ بِمَكَّةَ: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتَ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]، قَالَ: كَانَ إِذَا صَلَّى بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ، وَسَبُّوا مَنْ أَنْزَلَهُ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ. قَالَ: فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أَيُّ: بِقِرَاءَتِكَ فَيَسْمَعِ الْمُشْرِكُونَ فَيَسُبُّوا الْقُرْآنَ، ﴿وَلَا تُخَافُتَ بِهَا﴾ عَنْ أَصْحَابِكَ فَلَا تُسْمِعَهُمُ الْقُرْآنَ حَتَّى يَأْخُذُوهُ عَنْكَ ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾. رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَاحِبَا الصَّحِيحِ.

ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «السِّيَرَةِ» «بَابُ أَمْرِ اللَّهِ رَسُولَهُ ﷺ بِإِبْلَاجِ الرِّسَالَةِ إِلَى الْخَاصِّ وَالْعَامِّ» وَذَكَرَ: «أَمْرُهُ لَهُ بِالصَّبْرِ وَالْإِحْتِمَالِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِلِينَ الْمُعَانِدِينَ الْمُكَذِّبِينَ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَإِرْسَالِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ إِلَيْهِمْ، وَذَكَرَ مَا لَقِيَ مِنَ الْأَذْيَةِ مِنْهُمْ هُوَ وَأَصْحَابُهُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ».

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]؛ أَي: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ وَأَوْجَبَ عَلَيْكَ تَبْلِيغَ الْقُرْآنِ لَرَادُّكَ إِلَىٰ دَارِ الْآخِرَةِ وَهِيَ الْمَعَادُ، فَيَسْأَلُكَ عَنْ ذَلِكَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا، -قَالَ:- وَقَدْ تَقَصَّيْنَا الْكَلَامَ عَلَىٰ ذَلِكَ فِي كِتَابِنَا «التَّفْسِير»، وَبَسَطْنَا مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي «سُورَةِ الشُّعَرَاءِ» ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾. وَأَوْرَدْنَا أَحَادِيثَ جَمَّةً فِي ذَلِكَ. فَمِنْ ذَلِكَ: مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾؛ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ الصَّافَا فَصَعِدَ عَلَيْهِ...» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَذَكَرَ أَيْضًا مَا خَصَّ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ الْأَقْرَبِينَ؛ حَتَّىٰ خَصَّ ابْنَتَهُ وَذَكَرَهَا بِالْإِسْمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»: عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - أَوْ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فِيهِمْ رَهْطٌ كُلُّهُمْ يَأْكُلُ الْجَذْعَةَ -وَالْجَذْعَةُ: الَّتِي يُصْحَىٰ بِهَا-، وَيَشْرَبُ الْفَرْقَ -وَالْفَرْقُ: إِنَاءٌ-، قَالَ: فَصَنَعَ لَهُمْ

مُدًّا مِنْ طَعَامٍ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، قَالَ: وَبَقِيَ الطَّعَامُ كَمَا هُوَ كَأَنَّهُ لَمْ يُمَسَّ، ثُمَّ دَعَا بِغَمَرٍ، فَشَرِبُوا حَتَّى رَوَوْا، وَبَقِيَ الشَّرَابُ كَأَنَّهُ لَمْ يُمَسَّ أَوْ لَمْ يُشْرَبْ - مَعَ إِنَّهُ يَقُولُ: فِيهِمْ رَهْطٌ كُلُّهُمْ؛ أَيُّ: كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَأْكُلُ الْجَذْعَةَ؛ أَيُّ: يَأْكُلُ الشَّاةَ الَّتِي يُضَحِّي بِهَا وَحْدَهُ، وَيَشْرَبُ الْفَرْقَ؛ وَهُوَ إِنَاءٌ عَظِيمٌ يَضَعُ فِيهِ الْمَاءُ وَالْأَشْرِبَةُ، فَلَمَّا أَكَلُوا وَشَرِبُوا مَعَ هَذِهِ الْبَرَكَةِ الْحَالَةِ -، قَالَ: «يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنِّي بُعِثْتُ لَكُمْ خَاصَّةً، وَإِلَى النَّاسِ عَامَّةً، وَقَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَأَيْتُمْ، فَأَيُّكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَصَاحِبِي؟»، قَالَ: فَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ، قَالَ: فَكُفْتُ إِلَيْهِ، وَكُنْتُ أَصْغَرَ الْقَوْمِ، قَالَ: فَقَالَ: «اجْلِسْ»، قَالَ: ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ أَقَوْمُ إِلَيْهِ، فَيَقُولُ لِي: «اجْلِسْ»، حَتَّى كَانَ فِي الثَّلَاثَةِ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى يَدِي ﷺ.

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أَقْبَلْتُ الْعَوْرَاءُ أُمُّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبٍ وَلَهَا وَلَوْلَةٌ، وَفِي يَدَيْهَا فَهْرٌ - أَيُّ: حَجَرٌ يَمْلَأُ الْكَفَّ - وَهِيَ تَقُولُ: مُذَمَّمَا أَبِينَا، وَدِينَهُ قَلِينَا، وَأَمْرُهُ عَصِينَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَلَمَّا رَأَاهَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ أَقْبَلْتُ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي»، وَقَرَأَ قُرْآنًا فَاعْتَصَمَ بِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى، وَقَرَأَ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، فَوَقَفْتُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ، وَلَمْ تَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا بَكْرٍ! إِنِّي أَخْبَرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي، فَقَالَ: لَا، وَرَبِّ هَذَا الْبَيْتِ مَا هَجَاكَ، فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ: قَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشُ أَنَّ بِنْتُ سَيْدِهَا. أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ،

وَقَالَ: «صَحِيحُ الْإِسْنَادِ»، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ وَابْنُ حَبَّانَ وَأَبُو نُعَيْمٍ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِنَحْوِهِ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حَاتِمٍ أَيْضًا كَمَا فِي «الدَّرِّ الْمَنْشُورِ» وَلَهُ عِنْدَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ جَالِسٌ حَزِينًا قَدْ خُضِبَ بِالْدمَاءِ، -فَهَا هُوَ الْأَذَى يَصِلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى تَسِيلَ دِمَاهُ- ضَرَبَهُ بَعْضُ أَهْلِ مَكَّةَ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ: مَا لَكَ؟ قَالَ: فَقَالَ لَهُ: «فَعَلْ بِي هَؤُلَاءِ وَفَعَلُوا»، قَالَ: فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَتُحِبُّ أَنْ أُرِيكَ آيَةً؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَى شَجَرَةٍ مِنْ وَرَاءِ الْوَادِي، فَقَالَ: ادْعُ بِتِلْكَ الشَّجَرَةِ، فَدَعَاها رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَتْ تَمْشِي حَتَّى قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: مُرْهَا فَلْتَرْجِعْ، فَأَمَرَهَا فَرَجَعَتْ إِلَى مَكَانِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حَسْبِيَ». أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ الزُّبَيْدِيِّ: أَنَّهُ مَرَّ وَصَاحِبٌ لَهُ بِأَيِّمَنَ، وَفِئَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ حَلُّوا أَزْرَهُمْ فَجَعَلُوهَا مَخَارِيقَ يَجْتَلِدُونَ بِهَا وَهُمْ عَرَاةٌ، فَلَمَّا مَرَرْنَا بِهِمْ قَالُوا: إِنَّ هَؤُلَاءِ قَسِيسُونَ فَدَعَوْهُمْ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ تَبَدَّدُوا، فَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُغْضَبًا حَتَّى دَخَلَ، وَكُنْتُ أَنَا وَرَاءَ الْحُجْرَةِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «سُبْحَانَ اللَّهِ!! لَا مِنْ اللَّهِ اسْتَحْيُوا، وَلَا مِنْ رَسُولِهِ اسْتَتَرُوا»، وَأُمُّ أَيِّمَنَ عِنْدَهُ تَقُولُ: اسْتَغْفِرُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَبَلَّأِي مَا اسْتَغْفِرُ لَهُمْ -أَي: بَعْدَ مَشَقَّةٍ وَجْهِدٍ وَإِطْأَاءٍ-. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَرَوَاهُ إِبْرَاهِيمُ الْحَرَبِيُّ وَالطَّبْرَانِيُّ؛ كَمَا فِي «الْإِصَابَةِ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ»، قَالُوا: كَيْفَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ، وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: جَلَسْنَا إِلَى الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ يَوْمًا فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: طُوبَى لِهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ رَأَتَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَاللَّهُ لَوَدِدْنَا أَنَا رَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ، وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْتَ. فَاسْتَغْضِبَ، فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ؛ مَا قَالَ إِلَّا خَيْرًا، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: «مَا يَحْمِلُ الرَّجُلَ عَلَى أَنْ يَتَمَنَّى مَحْضَرًا غَيْبَهُ اللَّهُ عَنْهُ؟ لَا يَذَرِي لَوْ شَهِدَهُ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ فِيهِ؟ وَاللَّهُ، لَقَدْ حَضَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْوَامٌ أَكْبَهُمُ اللَّهُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ، لَمْ يُحْيِيُوهُ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ، أَوْ لَا تَحْمَدُونَ اللَّهَ إِذْ أَخْرَجَكُمْ لَا تَعْرِفُونَ إِلَّا رَبَّكُمْ، مُصَدِّقِينَ لِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّكُمْ ﷺ، قَدْ كُفَيْتُمْ الْبَلَاءَ بِغَيْرِكُمْ، وَاللَّهُ لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى أَشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عَلَيْهَا فِيهِ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فِي فِتْرَةٍ وَجَاهِلِيَّةٍ، مَا يَرُونَ أَنَّ دِينًا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَجَاءَ بِفُرْقَانٍ فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَرَى وَالِدَهُ وَوَلَدَهُ أَوْ أَخَاهُ كَافِرًا، وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ قُفْلَ قَلْبِهِ لِلْإِيمَانِ، يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ هَلَكَ دَخَلَ النَّارَ، فَلَا تَقَرُّ عَيْنُهُ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ حَبِيبَهُ فِي النَّارِ، وَإِنَّهَا لِلَّتِي قَالَ اللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ رِجَالُهُ كُلُّهُمْ ثِقَاتٌ.

وَحَدِيثُ الْمَقْدَادِ هَذَا يُرَدُّ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ، يَقُولُ قَائِلُهُمْ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لَنَصْرَتُهُ، وَكُنْتُ فِي مَقَامِ أَبِي بَكْرٍ، وَمَا يَدْرِي الْمِسْكِينُ لَعَلَّهُ كَانَ يَكُونُ فِي مَقَامِ أَبِي جَهْلٍ!! فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَفَاكُمْ الْبَلَاءَ بِغَيْرِكُمْ؛ فَاحْمَدُوا اللَّهَ إِذْ أَخْرَجَكُمْ لَا تَعْرِفُونَ إِلَّا رَبَّكُمْ، مُصَدِّقِينَ لِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّكُمْ، فَاللَّهُمَّ أَقِمْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى نَلْقَى وَجْهَكَ الْكَرِيمَ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَمَرَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَيْلًا وَنَهَارًا، وَسِرًّا وَجَهْرًا؛ لَا يَصْرِفُهُ عَنْ ذَلِكَ صَارِفٌ، وَلَا يَرُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ رَادٌّ، وَلَا يَصُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ صَادٌّ، يَتَّبِعُ النَّاسُ فِي أَنْدِيَتِهِمْ وَمَجَامِعِهِمْ وَمَحَافِلِهِمْ، وَفِي الْمَوَاسِمِ وَمَوَاقِفِ الْحَجِّ، يَدْعُو مَنْ لَقِيَهُ مِنْ حُرٍّ وَعَبْدٍ، وَضَعِيفٍ وَقَوِيٍّ، وَغَنِيٍّ وَفَقِيرٍ، جَمِيعُ الْخَلْقِ فِي ذَلِكَ عِنْدَهُ سَوَاءٌ، وَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ أَحَادِ النَّاسِ مِنْ ضَعْفَائِهِمْ الْأَشْدَّاءُ الْأَقْوِيَاءُ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ بِالْأَذِيَّةِ الْقَوْلِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَيْهِ عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ، وَاسْمُهُ: عَبْدُ الْعُزَّى بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَامْرَأَتُهُ أُمُّ جَمِيلٍ: أَرْوَى بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ، أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ.

وَخَالَفَهُ فِي ذَلِكَ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحَبَّ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيْهِ طَبْعًا، وَكَانَ يَحْنُو عَلَيْهِ وَيُحْسِنُ إِلَيْهِ، وَيُدَافِعُ عَنْهُ وَيُحَامِي، وَيُخَالِفُ قَوْمَهُ فِي ذَلِكَ مَعَ أَنَّهُ عَلَى دِينِهِمْ وَعَلَى خُلَّتِهِمْ؛ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ قَدْ امْتَحَنَ قَلْبَهُ بِحُبِّهِ حُبًّا طَبْعِيًّا لَا شَرْعِيًّا.

وَكَانَ اسْتِمْرَارُهُ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِمَّا صَنَعَهُ لِرَسُولِهِ مِنَ
الْحِمَايَةِ، إِذْ لَوْ كَانَ أَسْلَمَ أَبُو طَالِبٍ لَمَا كَانَ لَهُ عِنْدَ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَجَاهَةٌ وَلَا
كَلِمَةٌ، وَلَا كَانُوا يَهَابُونَهُ وَيَحْتَرِمُونَهُ، وَلَا جَتَرُوا عَلَيْهِ، وَلَمَدُّوا أَيْدِيَهُمْ وَالسِّتَهُمْ
بِالسُّوءِ إِلَيْهِ، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وَقَدْ قَسَمَ خَلْقَهُ
أَنْوَاعًا وَأَجْنَاسًا.

فَهَذَانِ الْعَمَّانِ كَافِرَانِ: أَبُو طَالِبٍ وَأَبُو لَهَبٍ، وَلَكِنَّ هَذَا يَكُونُ فِي الْقِيَامَةِ فِي
صَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ، وَذَاكَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ سُورَةً فِي
كِتَابِهِ تُتْلَى عَلَى الْمَنَابِرِ، وَتَقْرَأُ فِي الْمَوَاعِظِ وَالْخُطَبِ، تَتَضَمَّنُ أَنَّهُ ﴿سَيَصْلَى نَارًا
ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ٢ وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ﴿[المسد: ٣-٤].

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالْبَيْهَقِيُّ: عَنْ رَبِيعَةَ بِنِ عَبَادٍ مِنْ بَنِي الدَّيْلِ - وَكَانَ
جَاهِلِيًّا فَاسْلَمَ - قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي سُوقِ ذِي الْمَجَازِ
وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا»، وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ
عَلَيْهِ، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ وَضِيءُ الْوَجْهِ أَحْوَلُ ذُو غَدِيرَتَيْنِ يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِيٌّ كَذَّابٌ،
يَتَّبِعُهُ حَيْثُ ذَهَبَ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: هَذَا عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ.

وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنَّهُمْ يَقُولُوا حِينَئِذٍ: عَمُّهُ أَعْلَمُ بِهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ عَنْهُ ﷺ.

ثُمَّ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى عَنْ رَبِيعَةَ الدَّيْلِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ
ﷺ بِذِي الْمَجَازِ يَتَّبِعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ أَحْوَلُ،

وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَغُرَّنْكُمْ هَذَا عَنْ دِينِكُمْ وَدِينِ آبَائِكُمْ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟
قِيلَ: هَذَا أَبُو لَهَبٍ.

وَأَمَّا أَبُو طَالِبٍ، فَكَانَ فِي غَايَةِ الشَّفَقَةِ وَالْحَنُوِّ الطَّبِيعِيِّ؛ كَمَا سَيَظْهَرُ مِنْ
صَنَائِعِهِ وَسَجَايَاهُ وَاعْتِمَادِهِ فِيمَا يُحَامِي بِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي «التَّارِيخِ»، وَالْبَيْهَقِيُّ عَنِ الْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ عَقِيلِ بْنِ
أَبِي طَالِبٍ قَالَ: جَاءَتْ قُرَيْشٌ إِلَى أَبِي طَالِبٍ فَقَالُوا: إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ هَذَا قَدْ آذَانَا
فِي نَادِينَا وَمَسْجِدِنَا، فَانْهَهُ عَنَّا، فَقَالَ: يَا عَقِيلُ، انْطَلِقْ فَاتْنِي بِمُحَمَّدٍ، قَالَ:
فَانْطَلَقْتُ فَاسْتَخَرَجْتُهُ مِنْ كَبْسٍ يَقُولُ -أَي: مِنْ بَيْتٍ صَغِيرٍ-، فَجَاءَ بِهِ فِي
الظَّهِيرَةِ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، فَلَمَّا أَتَاهُمْ قَالَ: إِنَّ بَنِي عَمِّكَ هَؤُلَاءِ زَعَمُوا أَنَّكَ تُؤْذِيهِمْ
فِي نَادِيهِمْ وَمَسْجِدِهِمْ، فَانْتَهَ عَنْ أَذَاهُمْ، فَحَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَصَرَهُ إِلَى
السَّمَاءِ، فَقَالَ: «تَرَوْنَ هَذِهِ الشَّمْسُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَمَا أَنَا بِأَقْدَرُ أَنْ أَدَعَ
ذَلِكَ مِنْكُمْ عَلَى أَنْ تَشْتَعِلُوا مِنْهَا بِشُعْلَةٍ»، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَاللَّهِ مَا كَذَبَ ابْنُ
أَخِي قَطُّ، فَارْجِعُوا.

وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَصَمَهُ بِعَمِّهِ، مَعَ خِلَافِهِ إِيَّاهُ فِي دِينِهِ، وَقَدْ
كَانَ يَعِصِمُهُ حَيْثُ لَا يَكُونُ عَمُّهُ بِمَا يَشَاءُ. لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَيْتَنِي
رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ لِأَطَانٍ عَلَى عُنُقِهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،
فَقَالَ: «لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ لَأَخَذْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عِيَانًا».

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ أَبُو جَهْلٍ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَكَ أَنْ تُصَلِّيَ يَا مُحَمَّدُ، فَاَنْتَهَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: لِمَ تَنْهَرُنِي يَا مُحَمَّدُ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بِهَا أَحَدٌ أَكْثَرَ نَادِيًا مِنِّي، قَالَ: فَقَالَ جَبْرِيلُ: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (١٧) سَدَعُ الزَّبَانِيَةِ ﴿[العلق: ١٧-١٨]، قَالَ: فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَاللَّهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ الْعَذَابِ. رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ، وَالنَّسَائِيُّ.

وَرَوَى أَحْمَدُ، وَمُسْلِمٌ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يُصَلِّي كَذَلِكَ لَأَطَّانٌ عَلَى رَقَبَتِهِ، وَلَا عَفْرَنٌ وَجْهَهُ بِالتُّرَابِ، فَاتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي لِيَطَّأَ رَقَبَتَهُ، قَالَ: فَمَا فَجَأَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقْبِهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ قَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ خَنْدَقًا مِنْ نَارٍ، وَهَوَلاً، وَأَجْنَحَةً، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخْتَطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عَضُوءًا عَضُوءًا»، قَالَ: وَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ - لَا أَذْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَمْ لَا -: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴿[العلق: ٦-٧] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعَ مِنْ «صَحِيحِهِ» وَمُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ - هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا عَلَى قُرَيْشٍ غَيْرَ يَوْمٍ وَاحِدٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يُصَلِّي وَرَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ جُلُوسٌ، وَسَلَا جَزُورٌ قَرِيبٌ مِنْهُ، فَقَالُوا: مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السَّلَا فَيُلْقِيهِ عَلَى ظَهْرِهِ؟ - وَسَلَا الْجَزُورِ: هُوَ مَا

يَكُونُ فِيهِ الْوَلِيدُ؛ كَالْمَشِيمَةِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَرْأَةِ- فَقَالَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ: أَنَا. فَأَخَذَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَزَلْ سَاجِدًا حَتَّى جَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَخَذَتْهُ عَنْ ظَهْرِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِهَذَا الْمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ بْنِ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي بَنٍ خَلَفٍ، أَوْ: أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ». شُعْبَةُ الشَّاكِّ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَلَقَدْ رَأَيْتُهُمْ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ جَمِيعًا، ثُمَّ سُجِبُوا إِلَى الْقَلِيبِ، غَيْرَ أَبِي أَوْ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، فَإِنَّهُ كَانَ رَجُلًا ضَخْمًا فَتَقَطَّعَ -أَي: تَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُ عِنْدَ سَحْبِهِ-.

وَالصَّوَابُ: أُمَيَّةَ بْنُ خَلَفٍ فَإِنَّهُ الَّذِي قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَأَخُوهُ أَبِي إِنْمَا قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ؛ كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ بَيَانُهُ.

السَّلَا: هُوَ الَّذِي يَخْرُجُ مَعَ وَلَدِ النَّاقَةِ كَالْمَشِيمَةِ لَوَلَدِ الْمَرْأَةِ. وَفِي بَعْضِ الْأَفَاطِ «الصَّحِيحُ»: أَنَّهُمْ لَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ اسْتَضَحَّكُوا حَتَّى جَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بَعْضٍ؛ أَي: يَمِيلُ هَذَا عَلَى هَذَا مِنْ شِدَّةِ الضَّحِكِ -لَعَنَهُمُ اللَّهُ-.

وَفِيهِ: أَنَّ فَاطِمَةَ لَمَّا أَلْقَتْهُ عَنْهُ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ فَسَبَّتَهُمْ، وَأَنَّهُ ﷺ لَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ رَفَعَ يَدَيْهِ يَدْعُو عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ سَكَنَ عَنْهُمْ الضَّحِكُ وَخَافُوا

دَعَوْتَهُ، وَأَنَّهُ صَلَّى دَعَا عَلَى الْمَلَأِ مِنْهُمْ جُمْلَةً، وَعَيْنَ فِي دُعَائِهِ سَبْعَةً، وَقَعَ فِي أَكْثَرِ الرُّوَايَاتِ تَسْمِيَةً سِتَّةٍ مِنْهُمْ وَهُمْ: عُتْبَةُ وَأَخُوهُ شَيْبَةُ ابْنَا رِبِيعَةَ، وَالْوَلِيدُ ابْنُ عُتْبَةَ، وَأَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ، وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلْفٍ. قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: «وَنَسِيتُ السَّابِعَ». قَالَ: قُلْتُ: هُوَ عُمَارَةُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَقَعَ تَسْمِيَتُهُ فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ».

وَرَوَى عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى يُصَلِّي فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى، وَقَالَ: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ؟!

انْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ، وَقَدْ رَوَاهُ فِي أَمَاكِنَ مِنْ «صَحِيحِهِ»، وَصَرَّحَ فِي بَعْضِهَا بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، وَهُوَ أَشْبَهُ لِرِوَايَةِ عُرْوَةَ هَذِهِ، وَفِي رِوَايَةِ عُرْوَةَ وَهِيَ رِوَايَةٌ فِيهَا تَعْلِيْقٌ قَالَ: قِيلَ لِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ. وَهَذَا أَشْبَهُ لِتَقَدُّمِ هَذِهِ الْقِصَّةِ. وَقَدْ رَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنِ الْحَاكِمِ بِسَنَدِهِ عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ عُرْوَةَ قَالَ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: مَا أَكْثَرَ مَا رَأَيْتُ قُرَيْشًا أَصَابَتْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى فِيمَا كَانَتْ تُظْهِرُهُ مِنْ عَدَاوَتِهِ؟ فَقَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُهُمْ وَقَدْ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ يَوْمًا فِي الْحِجْرِ، فَذَكَرُوا

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ؛ سَفَهُ أَحْلَامَنَا، وَشَتَمَ آبَاءَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَسَبَّ آلِهَتَنَا، وَصِرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ - أَوْ كَمَا قَالُوا -.

قَالَ: فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ إِذْ طَلَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ طَائِفًا بِالْبَيْتِ، فَغَمَزُوهُ بِبَعْضِ الْقَوْلِ، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَضَى، فَلَمَّا مَرَّ بِهِمْ الثَّانِيَةَ غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَعَرَفْتُهَا فِي وَجْهِهِ، فَمَضَى، فَمَرَّ بِهِمْ الثَّالِثَةَ فَغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَقَالَ: «أَتَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ؟ أَمَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ».

فَأَخَذَتِ الْقَوْمَ كَلِمَتُهُ، حَتَّى مَا مِنْهُمْ مِنْ رَجُلٍ إِلَّا وَكَانَتْ عَلَى رَأْسِهِ طَائِرٌ وَقَعَ، حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَصَاةً قَبْلَ ذَلِكَ لَيَرْفُوهُ بِأَحْسَنِ مَا يَجِدُ مِنَ الْقَوْلِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: انصَرِفْ أَبَا الْقَاسِمِ رَاشِدًا، فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ جَهُولًا، فَانصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

حَتَّى إِذَا كَانَ الْغَدُ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ وَأَنَا مَعَهُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ذَكَّرْتُمْ مَا بَلَغَ مِنْكُمْ، وَمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُ، حَتَّى إِذَا بَادَأَكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ تَرَكْتُمُوهُ.

فَبَيْنَا هُمْ فِي ذَلِكَ إِذْ طَلَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَوَثَبُوا إِلَيْهِ وَثَبَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَأَحَاطُوا بِهِ يَقُولُونَ: أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ كَذَا وَكَذَا؟! لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُمْ مِنْ عَيْبِ آلِهَتِهِمْ وَدِينِهِمْ، فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ؛ أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ». وَلَقَدْ

رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ أَخَذَ بِمَجَامِعِ رِدَائِهِ، وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ يَبْكِي دُونَهُ وَيَقُولُ:
أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ؟! ثُمَّ انصَرَفُوا عَنْهُ. فَإِنَّ ذَلِكَ لَأَكْثَرُ مَا رَأَيْتُ
قُرَيْشًا بَلَغَتْ مِنْهُ قَطُّ.

وَإِنَّكَ لَتَعَجَبُ مِنْ شَأْنِهِمْ مَعَهُ، مَا كَانُوا يَعْبُونَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، لَا فِي خُلُقٍ وَلَا
فِي خَلْقٍ!! هَلْ حَارَبُوهُ وَعَانَدُوهُ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَهُ قَبِيحَ الْمَنْظَرِ سَيِّئَ الْمَظْهَرِ؟
هَلْ حَارَبُوهُ وَعَانَدُوهُ لِسُوءِ فِي طَبَاعِهِ أَوْ لَجَفَاءٍ فِي خِلَالِهِ؟! لَقَدْ كَانَ مِنْ ذَلِكَ فِي
الذُّرَّةِ الَّتِي لَا يُسَعَى إِلَيْهَا عَلَى قَدَمٍ وَلَا يُطَارُ إِلَيْهَا عَلَى جَنَاحٍ، فَمَا الَّذِي جَعَلَهُمْ
يُحَابُونَهُ هَذِهِ الْحَرْبُ؟!

إِنَّهُ الْكِبَرُ!!

مَا الَّذِي كَانَ يَضُرُّهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ بِدَعْوَتِهِ وَفِي دَعْوَتِهِ؟

لَا شَيْءٌ؛ وَإِنَّمَا هُوَ الْكِبَرُ!! يَأْنِفُونَ أَنْ يَكُونُوا تَبَعًا، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَكُونُوا
رُؤُوسًا، وَالْكِبَرُ يَدْعُو كَثِيرًا مِنَ الْخَلْقِ إِلَى تَكْذِيبِ الْحَقِّ، وَهَذَا فِي طَبَاعِ الْخَلْقِ
حَتَّى فِي غَيْرِ أُمُورِ الدَّعْوَةِ.

فَتَذْكُرُونَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ ابْنِ جَنِّيٍّ مَعَ شَيْخِهِ، وَكَانَ شَيْخُهُ مُبْغِضًا شَدَّةَ
الْبُغْضِ لِأَبِي الطَّيِّبِ، وَأَمَّا ابْنُ جَنِّيٍّ فَكَانَ رَاوِيَةَ أَبِي الطَّيِّبِ، حَتَّى كَانَ أَبُو الطَّيِّبِ
-وَهُوَ الْمُتَنَبِّي- يَقُولُ: «ابْنُ جَنِّيٍّ أَعْلَمُ بِشَعْرِي مِنِّي»، وَكَانَ إِذَا اسْتَشْكَلُوا شَيْئًا
مِنَ الْأَمْرِ فِي بَعْضِ شَعْرِهِ يَقُولُ: «ارْجِعُوا إِلَى أَبِي الْفَتْحِ -وَهُوَ ابْنُ جَنِّيٍّ-».

فَكَانَ ابْنُ جَنِّي مُمَزَّقًا بَيْنَ شَيْخِهِ وَشَاعِرِهِ، وَيَرَى الْمُتَنَبِّي فِي الْقِمَّةِ الْعَالِيَةِ فِي شِعْرِهِ وَأَدَائِهِ، لَمْ يَصِلْ إِلَى مِثْلِهَا شَاعِرٌ مِنْ قَبْلُ، وَأَمَّا شَيْخُهُ فَلَهُ مِنَ الْحَقِّ عَلَيْهِ مَا هُوَ لَهُ، فَآتَى يَوْمًا بِقَصِيدَةٍ مِنْ قَصَائِدِ أَبِي الطَّيِّبِ، فَكَتَبَهَا فِي صَحِيفَةٍ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى شَيْخِهِ، فَقَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ، فَقَالَ: هَاتِ يَا أَبَا الْفَتْحِ.

فَأَخَذَ يُنْشِدُهُ الشُّعْرَ الَّذِي اسْتَنْسَخَهُ مِنْ شِعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ، وَشَيْخُهُ يَمِيدُ طَرَبًا، وَيَقُولُ مُعْجَبًا: هَيْه؛ يَسْتَزِيدُهُ حَتَّى إِذَا فَرَغَ، قَالَ: يَا أَبَا الْفَتْحِ اكْتُبْ لِي مِنْهَا نُسخَةً، ثُمَّ قَالَ لَهُ: لِمَنْ هَذَا الشُّعْرُ؟ قَالَ: لِلَّذِي يُبْغِضُهُ الشَّيْخُ وَيَحْطُ عَلَيْهِ؛ لِأَبِي الطَّيِّبِ، قَالَ: خَرَّقْ خَرَّقْ فَإِنَّ أَثَرَ التَّكْلَفِ بَيْنَ عَلَيْهِ!!

أَفْتَرِيدُ لَهُوْلَاءِ أَنْ يَدْعُوا كِبَرَهُمْ وَيَتَّبِعُوا نَبِيَّهُمْ ﷺ؟! وَالرَّسُولُ

مَا مَنَعَهُمْ إِلَّا الْكِبَرُ!!

بَلْ إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَيَذْكُرُ بَعْضَ ذَلِكَ فِي رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِهِ، يَدِينُ بِدِينِهِ، وَيَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ، وَيُؤْمِنُ بِأَنَّهُ نَبِيُّهُ، لِمَا مَرَّ بِهِ وَهُوَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ فَقَالَ: «كُلُّ بِيَمِينِكَ»، قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ، قَالَ: «لَا أَسْتَطَعْتُ».

وَالَا هَاهُنَا دُعَائِيَّةٌ، فَدَعَا عَلَيْهِ بِاللَّا يَسْتَطِيعُ؛ فَشَلَّتْ يَمِينُهُ.

يَقُولُ: لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكُلَ بِيَمِينِي، وَلَمْ يَكُنْ صَادِقًا فِي هَذَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا أَسْتَطَعْتُ»، فَمَا اسْتَطَاعَ بَعْدَ أَنْ يَرْفَعَهَا إِلَى فِيهِ، قَالَ: «مَا مَنَعَهُ إِلَّا

الْكِبَرُ!!

احْذَرُ الْكِبَرُ، وَالْكِبَرُ مَا هُوَ؟

بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ، الْكِبَرُ لَهُ مَظَاهِرُ وَلَهُ أَصْلٌ فِي الْقَلْبِ؛ قَدْ تَزَوَّلَ مَظَاهِرُهُ وَيَبْقَى أَصْلُهُ، وَيَبْقَى الْمَرْءُ مُتَكَبِّرًا، مَعَ أَنَّ الظَّاهِرَ عَلَيْهِ التَّوَاضُّعُ، وَلَكِنَّهُ التَّوَاضُّعُ الْكَاذِبُ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَصِلَ بِهِ إِلَى الشَّنَاءِ الْأَكْذَبِ، فَاحْذَرْ هَذَا وَتَأَمَّلْ دَائِمًا فِي طَوِيَّتِهِ؛ فَإِنَّ الْكِبَرَ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ.

وَبَطَرُ الْحَقِّ: دَفْعُهُ وَرَدُّهُ عَلَى قَائِلِهِ؛ لِعِلَّةٍ كَامِنَةٍ فِي النَّفْسِ، وَلِمَوْرُوثِ خَفِيِّ فِي الرُّوحِ فَهُوَ لَا يَقْبَلُ هَذَا، يَرُدُّهُ وَيَدْفَعُهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ الْحَقُّ!!

بَطَرُ الْحَقِّ: دَفْعُهُ وَرَدُّهُ عَلَى قَائِلِهِ؛ إِمَّا لِحَقَارَةِ شَأْنِهِ عِنْدَهُ، وَإِمَّا لِقِلَّةِ مَالِهِ، وَإِمَّا لَوَضَاعَةِ نَسَبِهِ، وَإِمَّا لِبَغْضَاءِ تَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِي قَلْبِهِ، وَهَذَا الَّذِي جَاءَ بِالْحَقِّ بَرِيءٌ مِنْهَا، لَا يَعْرِفُهَا وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا؛ وَلَكِنْ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ!!

يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِاحْتِقَارٍ وَلَا يَعِدُهُمْ شَيْئًا، وَيَعِدُّ النَّاسَ كَالذُّبَابِ، أَوْ كَالْتُّرَابِ الَّذِي يَرَى مِنْ خِلَالِ أَشْعَةِ الشَّمْسِ، كَأَنَّهُ لَا شَيْءَ!! فَهَذَا هُوَ الْكِبَرُ فَاحْذَرُهُ.



